

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ﴾

لَا تُقَدِّمُوا: لَا تَقْطَعُوا أَمْرًا وَتَحْزِمُوا بِهِ.

إن وضع رأينا الشخصي فوق رأي الرسول حرام بصريح هذا النص القرآني . وقد كانت صورة ذلك الرسول - ﷺ - على قيد الحياة ، أن يسبقه أحد بالجواب في مسألة تعرض في مجلسه ، وبالتالي يحاول تقديم قوله على قول الرسول . وأما بعد وفاته - عليه الصلاة والسلام - فيعني ذلك أن يأخذ المرء في تكوين آرائه ومواقفه تجاه شتى القضايا والشئون الحياتية متحرراً من هداية الله غير متقيد بتوجيهات رسوله الكريم ، وإنما يقع المرء في غفلة كهذه لأنه يغيب عن باله أن الله رقيب عليه يرصد كل حركاته وسكناته ، ولو أدرك المرء أن صوته يصل إلى الله قبل وصوله إلى مسامع الناس لاحتبس لسانه في فمه ، ولصار أكثر ميلاً إلى أن يلزم الصمت منه إلى أن يتكلم !!

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۚ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۖ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ۖ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۚ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٠﴾

أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ: كراهة أن تبطل أعمالكم.

يَغْضُوبُونَ أَصْوَابَهُمْ: يخفضونها ويخافتون بها.

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ: أخلصها وصفها.

الْحُجُرَاتِ: حجرات زوجاته ﷺ.

إن أعراب البوادي لم يكونوا على جانب كبير من النضج الفكري والشعوري ، حتى إن بعض رؤسائهم كانوا إذا جاءوا إلى مجلس رسول الله - ﷺ - يخاطبونه باسمه قائلين " يا محمد " بدلاً من : " يا رسول الله " ، أو " يا نبي الله " ، كما كان أسلوب حديثهم معه يتسم بالكبر والتعالي بدلاً من التواضع والانكسار ، فنزل الوحي ينهاهم عن هذا الأسلوب وتلك الطريقة في المحادثة والخطاب . وحيث إن الرسول يكون مندوب الله في الأرض ؛ فإن سوء الأدب في حضرته على هذا النحو سوء تأديب مع الله - عز وجل ، مما من شأنه أن يحبط علم المرء ويجرده من كل قيمة !!

والهدي الذي جاء به الرسول الكريم - ﷺ - يقوم مقامه في هذه الدنيا بعد وفاته ، فنحن الآن مطالبون بالتبعية لهذا الهدي النبوي المقدس تماماً كما كان المعاصرون للرسول مطالبين بالتبعية لذات الرسول في كل شئونهم .

إن مخافة الله تجعل الإنسان غايةً في الجدية ، فلو استقرت مخافة الله في قلب أحد الناس حقاً ، لا هتدى بمقتضى طبيعته إلى الأمور التي لا يكاد يدركها الآخرون حتى بالرغم من إرشادهم إليها مرةً وأخرى !

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ

فَتُصَبِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

لَعَنْتُمْ: لأنتمم وهلكتم.

إذا أخبر شخص ما عن غيره بما يسيء إلى سمعة الأخير؛ فإن تصديق مثل هذا الخبر فور سماعه يتنافى مع مزاج التحفظ والاحتياط الإيماني تمام المنافاة، إذ يجب على السامع في هذه الحالة أن يتخذ كل ما يلزم للتأكد من صحة الخبر أو كذبه، وألا يبني رأياً أو حكماً إلا بعد التحقق النزيه المحايد وليس قبله، وكثيراً ما يحدث أن المرء إذا بلغه خبر من هذا النوع، يأخذ أصحابه من فورهم في الحديث عن القيام ببعض الإجراءات ضد الشخص المخبر عنه، وهذا موقف يتسم بمنتهى عدم المسؤولية فلا يجوز لامرئ ما أن يحكم على أخيه بناء على خبر قبل التثبت منه، كما لا ينبغي لأصحابه بدورهم أن يشيروا عليه بالإقدام قبل الوقوف على حقيقة الأمر.

والذين يوفقون إلى طريق الرشد والهداية ينشأ في داخلهم مزاج يختلف عما كانوا عليه قبلئذ، حيث تعود نفوسهم الآن تنقزز من توجيه التهم نحو الآخرين، وهم يفضلون الصمت على الكلام في أمر لا يعرفون كنهه، ومزاجهم هذا علامة تدل على أنهم قد ظفروا من رحمة الله بنصيب، وأن حياتهم وأعمالهم يتحكم فيها في الواقع ذلك الإيمان الذي هم يقرونه بالسنتهم !!

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا

بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٢٠٨﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا
بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٩﴾

بَعَثَ: اعتدت واستطالت وأبت الصلح .

تَفِيءَ: ترجع .

وَأَقْسِطُوا: اعدلوا في كل أموركم .

الْمُقْسِطِينَ: العادلين فيحسن جزاءهم .

لَا يَسْخَرُ: لا يهزأ ولا ينتقص .

كيف ينبغي أن يعايش المسلمون بعضهم بعضاً ؟ جواب ذلك باختصار هو أن يتعايشوا كإخوة متحابين، فرابطة الدين ليست بأقل من رابطة الدم والقرابة بأي وجه من الوجوه، وإذا وقع بين رجلين من المسلمين خصام أدى إلى قتال ، فلا يجوز للباقيين أن يلودوا بالصمت أو يوسعوا شقة الخلاف بين الاثنين بوسائل التحريش والوشاية ، وإنما يجب عليهم أن يهبوا بدافع الأخوة والمحبة لتسوية النزاع بمقتضى الحق والعدل وإيجاد الصلح والتفاهم بينهما .

وقد يحتمل إذا تخاصم رجلان أو طائفتان من المسلمين أن يقف الباقيون من المتقاتلين على الحياد ، أو ينحاز بعضهم إلى طائفة وبعضهم الآخر إلى طائفة أخرى ، استجابة لدواعي التعصب العائلي أو التحزب المذهبي ، فيتقاتلون جميعاً بينهم ، وكل هذه الطرق بعيدة عن روح الإسلام تماماً ، والمنهج الإسلامي الصحيح هو البحث عن وجه الحق في الأمر المتنازع عليه ، والوقوف إلى جانب الحق ، وإرغام مَنْ ليس على الحق على قبول الحكم العادل في القضية محل النزاع ، والذي يخاف الله ويخشاه ليس من شأنه أبداً أن يتلذذ برؤية أخويه في الدين يتقاتلان ، وإنما هو يحزن أشد الحزن ويتململ

تملأ السليم إذا ما وقع بصره على منظر كهذا ، ولن يشعر بالهدوء أو الراحة ما لم يبذل جهده في الإصلاح وتطبيع العلاقات بين الاثنين ، وهؤلاء الذين يصير الإيمان بالله وتقواه عندهم مدخلاً إلى عالم الرحمة الإلهية!!

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٨﴾﴾
وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ: ولا يطعن بعضكم بعضاً.
وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ: لا تداعوا بالألفاظ المستكرهه.

إن عاطفة التعاطف والاستكبار - بمعنى التطلع نحو العظمة والكبرياء وحب البروز - كامنة داخل بعض البشر ، وهذا هو السر في أن شخصاً لا يكاد يعثر في غيره على نقیصة ما ، حتى يتناولها بالتضخيم ويبالغ في إبرازها للناس ؛ وذلك لكي يثبت لهم أنه " كبير " وغيره " صغير " ... وهكذا يهزأ الإنسان بأخيه الإنسان ، وهو يلزمه ويذكره بلقب السوء سعيًا منه وراء إشباع عاطفة التعاطف والكبرياء الكامنة فيه .

غير أن أساس التفاضل ومعیار الصلاح ليس ما يقرره المرء من تلقاء نفسه ، وإنما الصالح هو الذي يعتبر صالحاً عند الله ، والعكس صحيح . ولو استقر الشعور بهذه الحقيقة في نفس الإنسان لقضي على عاطفة كبريائه ، ولصار الاشتغال بلمز الغير والنيل من عرضه، وتناول الآخرين بالتعيب وذكرهم بما يكرهونه من الأساء والألقاب لصار يبدو له كل ذلك لغواً فارغاً ، وعبثاً محضاً ؛ لأنه سيدرك أن مراتب الناس ودرجاتهم سيتم تحديدها عند الله عز وجل .. إذن فكم سأكون سخييف الرأي لو أنني احتقرت اليوم أحد الناس وكان هو في عالم الآخرة من بين عباد الله المكرمين ؟!

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

كثيراً مِّنَ الظَّنِّ: هو ظن السوء بأهل الخير.

وَلَا تَجَسَّسُوا: لا تتبعوا عورات المسلمين.

فَكَرِهْتُمُوهُ: فقد كرهتموه فلا تفعلوه.

إذا ساء ظن الواحد منا بشخص ما ، صار كل أمره عنده موضع الريبة والاشتباه ، حيث يسير ذهنه بالنسبة إلى ذلك الشخص بعدئذ في الاتجاه السلبي ، مما يجعله يفتش عن عيوبه أكثر من محاسنه ، ويعود النيل من عرضه وتشويه سمعته بنشر مساوئه بين الناس هوايته المفضلة..! وسوء الظن هو مصدر معظم الشرور والمفاسد الاجتماعية ، ومن هنا لا بد للمرء أن يكون على حذر دائم بهذا الخصوص ، فلا يسمح للظن السيئ باقتحام قلبه أو ذهنه أبداً .

ولئن بلغك عن أحد الناس شيء يبعث على سوء الظن به ، فبإمكانك أن تلتقي به مباشرة لكي تتحدث إليه في هذا الشأن ، وأما ذكرك إياه بالسوء في غيابه ، حيث لا يمكنه أن يتولى الدفاع عن نفسه ، فذلك عمل دنيء جداً وبعيد عن الأخلاق والمروءة كل البعد ، ومن المحتمل أن يقع المرء في أخطاء كهذه بصورة وقائية ، إلا أنه لن يصر على خطئه أبداً لو كان قلبه مليئاً بخوف الله ، فإن خوف الله سرعان ما ينبهه على خطئه ويجعله بالتالي يتخلى عن فعله ويرجع إلى الله راجياً عفوه وغفرانه !!

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَدُّكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

توجد بين الناس فوارق شتى ؛ كفارق اللون والجنس والشعب والوطن .. إلخ ،
والغاية من جميع هذه الفوارق إنما هي التعارف وليس التمايز أو التفاضل ، والسبب في
معظم الشرور والآفات أن الناس يأخذون في تفضيل بعضهم على بعض بناء على مثل
هذه الفوارق ؛ مما يؤدي إلى الفرقة والخصومة والعصبية التي لا تعرف حداً تقف
عنده !!

والبشر كلهم وحدة واحدة من حيث مبدؤهم ، وإن كان هناك أساس للتمييز أو
التفاضل بينهم فإنما يتمثل ذلك في شيء واحد هو تقوى الله . والتقوى شيء لا يعلمه
علماً حقيقياً إلا الله ... ولذا فالله وحده دون أحدٍ سواه يستطيع أن يحدد قيم الناس
وأقدارهم تحديد العليم الخبير !!

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ
الْإِيمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٥٥﴾

آمناً: صدقنا بألستنا وقلوبنا.

أَسْلَمْنَا: استسلمنا خوفاً وطمعا .

كانت هناك عدة قبائل صغيرة في ضواحي المدينة، وهؤلاء ، وإن كانوا قد اعتنقوا
الإسلام في أعقاب الهجرة النبوية ، إلا أن إسلامهم لم يكن وليد ثورة فكرية عميقة ،
والمؤمن عند الله حقاً هو الذي يدرك الإسلام كحقيقة تسري في أعماق قلبه وتشرّبها
روحه ، والذين يدخلون في دين الله على هذا النحو ، يظفرون بيقين راسخ لا يزول ولا
يتزلزل ، وهم يكونون مستعدين للثبات عليه حتى ولو اقتضى الأمر التضحية بالمال

والنفس، والمرء إذا صدر منه عمل صالح فقلما يطيق الصبر على إخفائه، وإنما هو يميل في الغالب الأعم إلى إظهاره، في حين أن هذا الإظهار يحبط عمله، والعمل الصالح في الواقع هو الذي يُمارس لأجل الله، وإذا كان الله خيراً بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، فما الذي يدعو المرء إلى إظهار عمله والإعلان عنه؟!

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٠٠) يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾

لا يَلْتَكُم: لا ينقصكم.

أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ: أخبرونه بقولكم آمنا.

لو اهتمدى شخص ما إلى الإسلام أو تحقق على يديه عمل إسلامي ما، فيجدر به أن يعتبر ذلك نتيجة النصر الإلهي، إذ الإيمان والعمل الصالح كلاهما يتوقف على توفيق الله وفضله؛ ولذا يجب على المرء إذا وفق إلى خير ما أن يتوجه إلى الله بالشكر والامتنان ..

وبدلاً من هذا إذا أخذ الرجل يمين بذلك على إخوانه في الدين، فكأنها هو يقول بلسان حاله: إن لم أكن قد فعلت ما فعلت ابتغاء وجه الله، وإنما فعلت ذلك رياءً ونيلاً للحظوة لدى الناس!! إن الله سبحانه يحيط علماً بكل شيء على نحو مباشر فمن يعمل شيئاً لأجل الله، فليكن واثقاً من أن ربه مطلع على عمله بدون اطلاعه إياه عليه!!